رؤى

# لمسات إنسانية تبعث الأمل

رياض عبد القادر عودة

أذكر عندما كنتُ في الخامسة من عمري، أنني شاهدتُ نملةً تُدحرج حبةَ قمحٍ أكبر من حجمها، وتتنقل بها من مكان إلى آخر دون كللٍ أو ملل، حين ذلك أخذتُ أحاور نفسي، لماذا يسير النمل ويتنقل؟ ولماذا هذا التعب؟ ومَن الذي أوجد فيه هذه الطاقةَ كي يمارس تلك المهنة الشاقة؟ كلُّ هذا كان يطرقُ ذاكرتي، ويجعلني أتساءل: هل سيكون مستقبلي مثل تلك النملة؟ كَبُرتُ وكَبُر معي هذا التساؤل، وظل عالقاً في ذهني ووجداني، أشياء وأشياء تعيش في مخيِّلتي، وتدفعني إلى حُب الاستطلاع والاكتشاف؛ كي أجدَ لها إجاباتٍ تبدِّدُ حيرتي، وتكشفُ عن جهلي بما يدور حولي من متغيرات وغرائب.

وكانت الروضةُ أولى مراحل تعليمي، فيها شعرت بالضجر من التكرار الخانق، كلَّ يوم أُمسك بمؤشر خشبي طويل؛ لأقرأ الحروفَ الهجائية عن سبورة متنقلة أ، ب، ت ...

وذات يوم، أثناء قراءتي للحروف بصوت مرتفع، ضربتُ المؤشرَ على السبورة فكسرته، وهربتُ إلى البيت بأقصى سرعة، وقد حاول أبي إرجاعي، ولكنني كنت أدّعي المرض، وأُعلن ثورتي وبكائي؛ لأنني سأرجع إلى الملل والاختناق؛ بما يتنافى مع حبي للمرح واللعب والحرية.

## شارع في وسط رأسي

وعندما التحقتُ بالمدرسة الابتدائية في الصف الأول، كان معي الكثيرُ من أصدقائي الذين لعبتُ معهم في الحارة، فلم تكن المدرسةُ الابتدائية بالنسبة لي مكاناً غريباً أو مُملاً، بل كانت الصورةَ الحيَّةَ والكاميرا الحقيقية التي فيها نشأتُ مع أعز الناس على قلبي، حين كان كلُّ همي لعبتي، ومحبتي لأصحابي. كنا نخبئ أحلامنا؛ لننسج منها أجمل حكاية أثناء سيرنا إلى المدرسة، وأحياناً نتحاور في معنى كلمة أو عبارة، وكان فناءُ مدرستنا واسعاً، وتلفُّه الأشجار من كل مكان، ورمالُه صفراءُ ذهبية، نتناول طعامَنا على الأرض تحت شجرة، تُظللنا براءةُ الطفولة، وما زلتُ أذكر بعض المعلمين الأفاضل الذين كان لهم أعظم الأثر في بناء لَبِناتِ مستقبلي، وكنتُ أنتظرُ حضورَهم بشوقٍ ولهفة، ولكن حدثت معي ذاتَ يوم فاجعةٌ وأنا في الصف السادس، لن أنساها على الإطلاق، حيث إن معلم الرياضيات قد طلب مني ومن بعض التلاميذ أن نقُصَّ شعرَنا؛ بحُجة أنه طويل، رغم أن شَعري كان متناسقاً ونظيفاً، وكنتُ أهتم بتصفيفه، وعندما ذهبت الى المدرسة دون أن أقص شعري، أحضر معلمُ الرياضيات ماكينةَ حلاقة، وصنع

لي «شارعاً» وسط رأسي، كي أُضطَر لحلاقة شعري بنفس مستوى «الشارع» الذي رسمه المعلم على رأسي، فرجعتُ إلى البيت باكياً ومقهوراً، وحين شاهدني أبي على هذه الحال، سألني: مَن فعل بك ذلك؟ فقلت له: معلم الرياضيات؛ لأنني لم أحلق شعري كما طلب مني، فقال لي: «تستاهل، لازم تسمع كلام معلمك فهو مثل أبيك». منذ ذلك اليوم وأنا أكره الرياضيات، وأصبحَت حصةُ الرياضيات بالنسبة لي كجهنم، وبالكاد أنجح فيها، أما باقي مواد المنهاج، فكان يصل لأبي دائماً الشكر والتقدير من جميع المعلمين. وعندما أكملتُ دراستي في الأول الثانوي (العاشر)، انتهى رُعب الرياضيات، وجاءني الفرج في الصف الثاني الثانوي (الحادي عشر) القسم الأدبي، بعيداً عن الأرقام والقوانين والمعادلات، وفي ذلك الوقت لم يكن يُدرَّس في القسم الأدبي أي ذرة رياضيات، وقد تدرجتُ في دراستي بتفوق ونجاح، حتى حصلتُ على مؤهل تربوي يؤهلني للتقدم لوظيفة معلم، بمدارس وكالة الغوث.

## إذا أردتَ أن تستريح طوال العام كشِّر عن أنيابك!

شرعتُ في عملي برغبة ومتعة، حيث كان يسكنُ داخلي معلمٌ قدير، كان له أثرٌ عظيم في تغيير مجرى حياتي، وإنني اليوم أتتبع خطاه وأحاولُ أن أصنعَ الأمل مع طلابي كما صنعه معي ذلك المعلم، وعندما باشرت عملي، أخذ الزملاء يُغدقون عليَّ نصائحهم وتجاربهم الصفِّية مع الطلاب، حيث قال لي أحدُ الزملاء: «إذا أردتَ أن تستريح طوال العام، كَشِّر عن أنيابك، وأظهِر قسوتَك وتهديداتك، وإياك أن تبتسم لهم، يعني (وَرّجيهُم العين الحمرا) لمدة أسبوع فقط، وبعد ذلك افرُش ونام، يعني إذا نسيت ورَخيت لهم الحبل؛ ستجدهم كالتماثيل بدون أي همسة أو حركة، وبعدين إياك أن تضرب ولداً قبل نهاية الدوام في آخر حصة، لأن أثر الضرب سيعلِّم على جسده؛ وبالتالي أهله بيعرفوا، وبِتْعرِّض نفسَك لَلمساءلة».

لقد أقسَم لي أحدُهم قائلاً «واللهِ لو وصل الحد إلى فصلي، ما ترددتُ أن أُظهر للطلاب في أول أسبوع بأنني شديدُ القسوة ومعلمٌ جبّار؛ كي أظل مستريحاً طوال العام». ولكنني ضربتُ بهذه التوصيات والنصائح عُرض الحائط، حين استيقظ ذلك المعلمُ الذي يعيش في داخلي، والذي كان بمثابةِ نقطة تحوُّل في حياتي، فبدلاً من إظهار القسوة والتهديد وسمات المعلم الجبّار أحضرتُ بعضَ الحلوى، ووزعتُها على الطلاب، بعد أن رحبتُ بهم أجملَ ترحيب، ثم عرَّفتُهم بنفسي، وتعرفتُ عليهم واحداً واحداً، فأصبح الزملاءُ يرددون: «هذا المعلمُ حنون وطيب زيادة عن اللازم، اللّه يْكون بْعونُه، سَنَتُه غبرة هذا العام». ولأنني ضد التكرار الممل؛ كنت لا أبدأ الشرح إلا بعد نظافة الفصل، واختيار طريقة تنظيم المقاعد، بحيث تناسب الحصة التي سأقوم بأدائها داخل حُجرة الصف.

## يناديني بابا وهو يضع يده على فمه خجلاً!

ذات يوم حضر الناظر بالصدفة، وشاهد الفصلَ نظيفاً وجميلاً، والتلاميذ يلتفون حولي بشكل دائري، وهم يجلسون على سطح المقعد (مكان الكتابة) في هدوء وإصغاء، وأنا أسرد عليهم قصةً شيِّقة، فأُعجب الناظر بطريقة جلوسهم وإصغائهم طالما أن ذلك يسعدهم.

ولأنهم طلابي وتربطني بهم علاقةٌ إنسانية وأسرية حميمة، أسمع أحدَ الطلاب يناديني (بابا) وهو يضع يده على فمه خجلاً، وآخرَ يناديني (عمّو)، فكم كان ذلك يسعدني ويُشعرني بالقرب الأسري بيني وبينهم، وكان يصارحني بعضُ التلاميذ بأمور شخصية، فقد جاءني أحد طلاب الصف السادس بعد خروج الطلاب، يتوسل إليَّ وهو يبكي بأن أضيف له درجة؛ لأنه «لو عرفت أُمي أن درجتي 15 من 20 سوف تضربني، حتى شوف يا أستاذ»، وكشف عن كتفه، فإذا ببقعةٍ زرقاء حولها أثر أسنان، وقال: «إن أمي عضَّتني لأن درجتي في اللغة العربية 15 من 20»، علماً أن هذا الطالب من الطلاب المتفوقين، ولكن كان دائمَ الانشغال بصناعة ألعاب كهربائية بسيطة عن طريق البطاريات، وحفاظاً على سلامته وثقته العالية بمعلمه، أضفتُ له درجةً بشرط أن يجتهد في الاختبار القادم، ولا يجعلَ التجارب الكهربائية تأخذ معظم وقته، وبالفعل تحسَّن الطالب وحافظ على معدله الحقيقي بين المتفوقين.

وفي إحدى الحصص كنت واقفاً أمام التلاميذ أشرح الدرس، فإذا بأحد طلاب الصف السادس وكان ضخم الجسم، يفتح فمه، ويتجه نحوي مسرعاً ومرتعباً، وهو يشير بإصبعه إلى فمه، عند ذلك فطنتُ بسرعة، وعرفت أن شيئاً ما عالقٌ في حلقه، فأمَلتُ ظهرَه إلى الأمام، ثم ضربتُ بكفّ يدي ضربةً قوية على الحجاب الحاجز، فإذا

بالهواء المضغوط يدفع المحاةَ العالقة في حلقه ويلفظها من فمه على السبورة، وقد حمدتُ اللّه كثيراً، أن أعانني ومكّنني من إنقاذ هذا الطالب من اختناق مُحقَّق.

## قبل تشييع جنازة أحد طلابي أخذتُ أبحث عن توأمه:

ذات يوم، فاجأني خبر استشهاد أحد طلابي في الصف السادس، والذي تميز عن أقرانه بالعلم والأدب والخلُق، ورغم صِغَر سِنِّه إلا أنه كانت تظهر عليه ملامح الرجولة وتحمُّل المسؤولية، وقُبيل تشييع جنازته أخذتُ أبحث عن أخيه التوأم (عمرو)، وحين رأيته صُدِمتُ من شحوب وسواد وجهه.

وشعرتُ كأنه ينتظرني كي أخفف عنه الألم الذي يكوي قلبه، وحين ضممتُه إلى صدري أجهش بالبكاء بشكلٍ ملفتٍ، حتى تأثَّر الحضور من شدة اعتصار قلب الشقيق على شقيقه، وأخذتُ أُجفف الدموع عن وجهه، وأمسحُ على رأسه بحنان، قائلاً له: إن أخاك في جنان النعيم وسوف يشفع لك يوم القيامة، حتى هدأ بعضَ الشيء، وبقيتُ أتردد على بيت العزاء مدة ثلاثة أيام، وكل مرة أُجْلِس عمرواً إلى جواري، أتحدث معه وأخفف عنه، وأشجعه على الصبر والسلوان، وقد فعلتُ كل ذلك خشيةَ أن تتولد لدى عمرو صرخةٌ خرساء لا تُحمد عُقباها، حيث إن فَقْد الأخ الشقيق، قد يكون أبلغَ وقعاً على وجدان شقيقه المقارب له في العمر، ولكن غالباً ما يتم تجاهلُه وإهماله، في خِضَم اهتمام الكبار من أهل وجيران وأصدقاء بمواساة الأب والأم والكبار فقط، وإهمال الصغار وكأنهم لا مشاعر لهم، ولا وجود، ولا صوت، فعلينا أن نعرف كيف نواسيهم ونخفف عنهم؛ فهم أكثرُ حاجةً إلينا في ذلك الوقت بالذات؛ حتى نشعرهم بالأمن والأمان.

ولا أنسى يوم اليتيم الذي أعدَّته المدرسة، على نفقة رجل ثري وكريم من المجتمع المحلي، حيث حددتُ للطلاب يوماً كاملاً للذهاب في رحلة مجانية إلى أماكنَ ترفيهية متنوعة، بصحبة معظم المعلمين الذين رافقوا الطلاب الأيتام وكأنهم أسرةٌ واحدة، وقد أقامت لهم المدرسةُ مائدةَ إفطار كبيرةً في أحد أيام شهر رمضان المبارك مكرُمةً من مؤسسة خيرية، شارك فيها مديرُ المنطقة والمشرفون، ومدراء المدارس ومعظم المعلمين، وكان كل معلم يتناول

أحد المشاركين في مشروع مسار «قطنة»، ضمن مشروع الثقافة والفنون والمشاركة المجتمعية، برنامج البحث والتطوير التربوي، 2018.

الطعام مع مجموعة من الطلاب؛ لِيُشعرهم بجوٍّ الأسرة الحميم، فكم كانت سعادة هؤلاء الطلاب، حيث شاهدنا الفرحةَ في عيونهم، وقد نسوا أنهم أيتام، وفي ختام مائدة الإفطار أذكر أن مقرر اللجنة الاجتماعية، صاحب فكرة هذا التكريم، وصديق الأيتام، بل وحبيبهم، والذي أحييه حاضراً أو غائباً، حين اقترح بإعطاء كل يتيم 2 كيلوغرام من التمر وبعضَ الحلوى الفاخرة، فكانت لمسةً إنسانية لها أثرٌ عظيم على قلوب الأيتام وقلوب ذويهم، غرست فيهم المحبة والتكافل والترابط.

## صرَخَت بأعلى صوتها: «ألا يحقُّ لي رؤيةَ أولادي؟!»

أذكر يومَ استوقفتني أمٌّ لطالبين، تسألني عن ولديها اليتيمين اللذين أعلِّمُهما، أحدُهما في الصف الخامس، والآخر في الصف الرابع، حيث أرشدتُها إليهما، فأخذَت تحضنهما وتمسحُ على رأسيهما، وتعطيهما الملابسَ وبعض الهدايا والحلوى، ما دفعني إلى أن أسألها عن قصة ولديها، فأخبرتني بأن زوجها توفي وهي في ريعان شبابها، وترك لها ثلاثة أولاد وبنتاً، وبعد وفاة زوجها مباشرة، استولى والد زوجها على راتب تأمين ومعاشات زوجها، وأخذ نصف شقتها، ليزوج ابنه فيها، وبالكاد كانت تحصل على وجبة طعام لها ولأولادها، ولم يُبقِ لها ولو قرشاً من راتب زوجها، وعندما اشتدت أزمتُها لجأت للعيش في بيت أخيها الذي ساندها؛ ما أسعد والد ووالدة زوجها لتركها المنزل، وتقول: «لكنني بقيتُ أتواصل مع أولادي من يوم إلى آخر، حتى منعوني من زيارتهم، أو بالأحرى استقبلوني بالشتائم والكلمات البذيئة، وكان ابني الكبير عمره ثلاث عشرة سنة، وكان دائماً يطلب زيارتي عند أخي، ولكن جده وأعمامه كانوا يمنعونه بشدة، ولما شدّدوا عليه بعدم زيارتي، قام بشنق نفسه بحبل ستارة الشباك، ولكن جده ادّعى بأن الحبل التف حول رقبته وهو يلعب بالستارة»، وأثناء حديثها أجهشت بالبكاء وأخذت تمسح دموعها، قائلةً: «لكنني صبرتُ وأوكلت أمري وأمرهم لله عز وجل، وأنا الآن أتواصل مع أولادي داخل مدارسهم من حين لآخر؛ لأنني مُنعت من زيارتهم في البيت». وقالت: «تشاء الظروف بعد عامين -وأنا في بيت أخي- أن يتقدم للزواج مني رجلٌ أرمل يخاف الله، وإنسان بكل معنى الكلمة، عمل على إسعادي، وتعويضي عن الشقاء الذي واجهته في حياتي، وكان زوجي ميسور الحال، حيث كان يدفعني دائماً لمتابعة أولادي وزيارتهم في المدرسة لتقديم ما يلزم لهم، وذات يوم ذهبت إلى المدرسة كي أراهما؛ وأقدمَ لهما بعضَ الملابس والهدايا، إلا أن الناظر طلب مني ألا أحضر إلى المدرسة لمقابلة أولادي، حيث أن جَدَّ الولدين قد أحضر قراراً من المحكمة، بحصر حضانة الأولاد لديه، وقراراً آخر يُثبت أنني على ذمة زوج آخر، فلا يحق لي اللقاء بهم، فأخذتُ أصرخ بأعلى صوتي، أين الإنسانية، أين الرحمة، يكفي فقدت زوجي وولدي الكبير، كمان عاوزين تحرموني من باقي أولادي، علماً بأنني كنتُ أزور ابنتي من حين لآخر في مدرستها، حيث إن الناظرة لم تُعِر قرارَ المحكمة أي اهتمام؛ لأنه قرارٌ جائر وغير إنساني، وأحياناً كان (حماي) يسمح لأولادي بزيارتي في بيت زوجي، طالما سيرجع كل ولد وجيوبه مملوءة، خاصةً حين علم بأن زوجي ميسور الحال وكريم، وأصبحتُ أعيش على صورهم، وأملي بالله أن يكبروا ويسعدوا».

وقد كنت أشاهدُ على وَجْهَيْ ولديها الجفاءَ والعنف، وتبدو الشراسةُ على تصرفاتهما، ودائماً ما يقعون بمشاكل وشجار مع الطلاب، وتصل بشأنهما شكاوى متكررة؛ بسبب جبروت الجد، وفقدانه كلَّ عناصر الشفقة والرحمة، وكنت أشاهد الأُم أحياناً تأتي إلى المدرسة، رغم قرار المحكمة المجحف، الذي يمنعها من اللقاء بهم، وكلما حدثتني عن أولادها تسيل الدموع غزيرةً من عينيها، ولكن سرعان ما تجففهما وتذهب إلى بيت زوجها، لتعيش حياتها المُغلَّفة بالسعادة؛ كي لا تُشعر زوجَها -الذي يستحق كل التقدير والاحترام- بشقائها المرير.

أتمنى من الأيادي البيضاء والقلوب الرحيمة، أن تنظر لأولئك الأطفال بعين الرحمة والشفقة؛ كي تُسعد أطفالاً حطّمتهم قسوةُ ذويهم الذين فقدوا كل معاني الحب والحنان والرحمة؛ ليبعثوا فيهم الحياةَ والأمل من جديد.

## عندما يسمع صاحب «القوقعة المزروعة «ذبذبات الصوت لأول مرة!

لفت نظري أحدُ الطلاب يوماً، أثناء صعوده على سلم المدرسة، وعلى أُذُنِه سماعةٌ ترسل إشاراتِ ضوئيةً متقطعة، وعندما سألت عنه، أخبرني زميلي أن هذا الطالب هو أحدُ الطلاب الصُّم الذين زُرعت لهم قوقعة، وهم الآن يسمعون، وقد تم دمجُهم مع الطلاب؛ ليتابعوا دروسهم وتعليمهم كباقي التلاميذ، أدهشني الأمر كثيراً؛ فأردتُ أن أعرف عنهم أكثر فأكثر، فأخبرني المعلم الذي يتابع المشاكل والمصاعب التي يواجهونها في البيئة الصفية،

ويعمل على مساعدتهم في تجاوزها بالتدريب والتسهيل والرَّويَّة، حيث أخبرني أن زراعة القوقعة تُجرى عمليتها في مستشفى حمد بن خليفة، بدعم وتمويل قطري، وبرعاية أطباء أجانب ذوي خبرة عالية في هذا المجال، ويتم زراعة خمسةٍ وعشرين قوقعةً كل شهرين، حيث يقوم الطبيب بفحص المكان المناسب للزراعة على أحد جانِبَي الرأس أعلى الأذن، من حيث قوةُ الإحساس ونشاط العصب، للتأكيد على ملاءمة المكان لزراعة القوقعة، وبعد شهرين من زراعة القوقعة في الرأس أعلى الأذن، يتم إيصالُ سمّاعة خارجية بمواصفات دقيقة، تُعلَّقُ على الأذن، وتوصل بمغناطيس على القوقعة المزروعة، وتحتوي هذه السماعة الخارجية على ضابط للصوت والتموجات والذبذبات، وتستهلك بطاريتين في اليوم الواحد، وهي بحجم بطارية ساعة اليد، وعندما يسمع صاحبُ القوقعة المزروعة ذبذباتِ الصوت لأول وهلة، ـــ بعد غياب طويل للسمع ـــ يأخذ في البكاء حتى تسيلُ دموعُه؛ لأن هذه الذبذبات والأصوات التي حدثت في رأسه لأول مرة كانت مفاجِئة له، وشيئاً فشيئاً يتعوَّد عليها، حتى يُصبح السمعُ لديه شيئاً طبيعياً، حينئذٍ تتلقف الأيدي الرحيمة في مستشفى حمد بن خليفة بغزة تدريبَه على النطق التدريجي بالحروف والكلمات، وذلك عن طريق صُور ومجسمات، أو فيديو في غُرفٍ خاصة بهم، من أجل تمكين الطالب من النطق السليم للحروف، والتقاط الأصوات لترجمتها داخل الدماغ. وقد تستمر عمليةُ التأهيل هذه لمدة سنة، أو سنتين، أو ثلاث سنوات، بحسب طبيعة الجُهد والعمل النشط لدى الأهل والمستشفى، ويُستحسن زراعة القوقعة في سِنٍّ مبكرة، حتى إذا بدأ الطالبُ حياته المدرسية، تناسَبَ عمرُه مع مرحلة الصف الأول، وهكذا يتدرج في المراحل التعليمية حتى يصل إلى المرحلة الجامعية، وقد كان نصيبُ مدرستنا ثلاثَ حالات، حيث إنني جلستُ مع أحد طلاب زارعي القوقعة، وعمرُه الآن سبعَ عشرةَ سنة، وبعد فترة التأهيل والتدريب في المراحل التعليمية، يدرس الآن مع طلاب الصف السابع جميع مواد المناهج.

وعندما تحدثتُ مع الطالب، كان نطقُه للكلمات يشبه نطقَ الأجنبي باللغة العربية، أي مع بعض الثقل في اللسان، إلا أن الجُمل واضحة ومفهومة، وإذا حدث وانخفض السمعُ لدى الطالب بسبب خلل قد يصيب السماعة الخارجية، يصبحُ التواصل معه شاقاً، فيحتاج إلى فنّي سماعات للجزء الخارجي المُكَمِّل لفعالية القوقعة الداخلية؛ كي يضبط ويبرمج إعدادات السماعة الدقيقة، وبالتالي يعود تَحسُّنُ السمع لديه، وإذا استعصى أمرُ إصلاح السماعة

فنانون وأهالٍ يشاركون في إعادة إحياء البلدة القديمة في قطنة من خلال التطريز، ضمن مشروع الثقافة والفنون والمشاركة المجتمعية، برنامج البحث والتطوير التربوي، 2018.

في غزة، يتم تحديدُ موعد مع طبيب ذي خبرة عالية؛ ليقوم بمهمة إصلاحها، أو برمجتها، أو استبدالها، وخاصةً أن الجزء الخارجي من القوقعة (السماعة) يمكن إصلاحُه أو تغييره، أما القوقعةُ الداخلية فقد يستمر وجودُها وفعاليتها مع الشخص طوالَ العمر.

وهذه القوقعات نادراً ما تتلف، وإذا تلفت فلا يجوز زراعةُ قوقعة جديدة في المكان ذاته، بل في الجانب الآخر من الرأس أعلى الأُذن الأُخرى، وقد أظهر أحدُ هؤلاء الطلاب (زارعي القوقعة) تفوقاً ملموساً في الرياضيات والمسائل الحسابية الدقيقة والسريعة، ويقوم طالبٌ آخر برسم لوحاتٍ معبرة، فيها عمقٌ وقدراتٌ فنية راقية، تضاهي الرسومات العالمية.

فكلُّ الشكر للأيدي الرحيمة، واللمسات الإنسانية، التي بذلت الجهدَ المادي والمعنوي، وعملت على إنقاذ هؤلاء الطلاب، والأطفال، وخلَّصتهم من عذابات الصمَم القاتل، وأعادت لهم حياةً شبهَ طبيعية حتى يتمتعوا بالسمع الذي يمدُّهم بالأمل؛ لتحقيق طموحاتهم وإبراز مواهبهم.
وكل التقدير للوفد القطري، الذي أخذ على عاتقه بذلَ الجهود المُضنية؛ من أجل إعادة البسمة على وجوه أبنائنا الصُّم. أبارك لكم هذا العمل النبيل، الذي أسعدتُم فيه أناساً كلُّ ذنبهم أنهم وُلدوا صُماً.

## الطالب دائمُ السكون دائمُ الانعزال

أعرف طالباً دائمَ السكون والانعزال عن التلاميذ، لا يُحدِّثُ أحداً في الفصل، ويفضل الجلوسَ في آخر مقعد رغم قِصَر قامته، ودائماً أشاهده مشغولاً في الرسم، وعندما قمتُ بتصحيح أحد الاختبارات الشهرية، لاحظتُ أن إجاباته تختلف عن إجابات التلاميذ، فهي إجاباتٌ مميزة من تفكيره واستنتاجه، بخلاف إجابات التلاميذ المألوفة، وكنتُ أحياناً أحاول اختبارَ مدى انتباهه أثناء انشغاله في الرسم، بسؤال حول موضوع الدرس، فأتعجب من إجابته الواضحة والسليمة. إن عُزلةَ هذا الطالب عن التلاميذ، وهدوءَه وإجاباته المميزة، رُغم انشغاله بالرسم، دفعني إلى متابعة أحواله؛ لأنني شعرتُ بأن خلف هذا الطالب حكايةً ما، فكنت أقتربُ منه بوسائلَ مختلفة، أحياناً أُعيرُه بعضَ الاهتمام، وأحياناً أُثني على إجاباته المميزة، أو أنظرُ إليه مبتسماً، وكان هذا الاهتمامُ يسعده ويدخل الفرحةَ إلى قلبه.

ومما أثار دهشتي رغم هذه الإجابات المميزة، تدنّي درجاته في جميع مواد المنهاج، وحينما جاءت أُمُّه إلى المدرسة تخبرني عن سعادة ولدها لاهتمامي به، أخبرتني بأن ابنها من مواليد السويد، وقد رجع والدُه مع باقي إخوانه وتركنا في غزة، وهدَّدني إذا كانت درجاتُه متدنية سوف يأخذه إلى السويد؛ بحجة تقصيري وإهمالي في تربيته وتعليمه، فأرجو منك متابعته عند باقي المعلمين، كي لا أفقده، فهو ولدي الوحيد هنا في غزة، أستمدُّ منه الأُنسَ والسَنَد.

وبالفعل، تابعت هذا الطالبَ لدى جميع المعلمين، وجميعُهم شهدوا على هدوئه ورزانته وانشغاله بنفسه، وأخبرني بعضُ المعلمين، أن عدم وضوح خطه هو السبب في تدني درجاته، حين ذلك أدركتُ أنه لا يكفي أن تضع يدك على الجرح، فأحضرتُ له كُراسة خط للصف الرابع، وطلبتُ منه أن يحاكي النموذج، ثم يُطلعني على كل صفحة، وشيئاً فشيئاً بدأ خطُّه يتحسن، وكل مرة أشجعه قائلاً: إنك سوف تتقدم وتتفوق طالما خطك في تَحَسُّنٍ، وأُعجب معلمُ التربية الفنية برسوماته الرائعة والمعبرة، وبدأت تبرز مواهبه، وقد تفاجأ معلمُ الرياضيات من سر ذكائه، وسرعته الفائقة في العمليات الحسابية، حيث تم اختيارُه ليمثل المدرسة في مسابقة الرياضيات، فنال المرتبة الثانية على مستوى جميع طلاب الصف الخامس بمدارس وكالة الغوث، وهكذا استطاع هذا الطالبُ أن يرسم خطى مستقبله الأولى بنجاح وتفوق، بفضل الرعاية التي تلقاها، وساهمت في إرشاده إلى طريق التميز والتفوق، فلنحرص على غرس الفضيلة والعلم والقيادة في نفوس أبنائنا، حتى نصنعَ منهم الأدباءَ والعلماء والقادة؛ فعلى عاتقهم تقع مسؤوليةُ بناء المجتمع وقيادةِ الأمة.

وختاماً، إن لقاءات وفعاليات مسرح المنتدى بمركز القطان للبحث والتطوير التربوي، كان لها عظيمُ الأثر في كتابتي وفي إبراز قضايا المضطهدين على السطح؛ من أجل مساندتهم والتخفيف عنهم، قدر الإمكان، وعدم تركهم يكابدون القهر وحدهم، وإن هذه اللمسات الإنسانية، تُثبت أن الحق فوق الظلم مهما طال، وإن الأمل سوف يُسدِلُ ستارَه على الظلام؛ كي يسطعَ الفجرُ بنوره وبهائه من جديد.

**معلم في مدرسة ذكور غزة الجديدة الإعدادية «أ»**